الفصل الثالث

تعليم المرأة

- **تعليم المرأة .**

- علاقة الإسلام بتعليمها .
- تعليم البنت في العصر الأموي .
- في العصر العباسي .
- عائشة بنت أحمد .
- فضل المدنية .
- حسّانة التميمية .
- عُلَيّة بنت المهدي .
- ولّادة الروائية .
- قمـــــر .
- عمـــــرة .
- النساء والتدريس والأستاذية .
- ماذا تتعلمه الفتاة ؟
- من دفاع باحثة البادية .
- عيب التربية لا التعليم .
- مقترحات باحثة البادية .

تعليم المرأة

• علاقة الإسلام بتعليمها :

المرأة نصف المجتمع .. فعليها إذن العبء الواجب للعمران ، ولا ريب أن المسئولية الشخصية والمسئولية الاجتماعية تقتضيان العلم للنهوض بواجب هاتين المسئوليتين .

فالمرأة مسئولة عن صلاتها وصيامها وزكاة مالها وحجها ، وتصحيح عقيدتها. وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وعن الاستباق إلى الخير . وبالإجمال كل ما جاء به الإسلام فى الكتاب العظيم وفى السنة المطهرة لبيان واجب المسلم والمسلمة : على المرأة أن تتعلمه وتعلمه نظرياً وعملياً .

وإذا كان من المسلَّم به أن الإسلام عبادة وقيادة وسياسة واجتماع واقتصاد وحركة للحياة فى شتى مجالات الحياة .. وإدراك كل ذلك لا يأتى عفوياً . وإنما بالدرس والتلقين والتلقى .. كان من المنطقى أن يكون تعلم الإسلام - والإسلام ثقافة واسعة شاملة عميقة متنوعة - واجباً على كل مسلم ومسلمة ، ولهذا فلا غرابة فى أن يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، بل الذى يكون غريباً وليس منطقياً مع الإسلام بمفهومه الذى ذكرنا أن ينكر تعليم المرأة ، أو أن يعد تعليمها نافلة وأمراً ثانوياً .. وأن يأتى من يقول : كلمة « ومسلمة » إضافة زائدة على الحديث الذى رواه ابن ماجه ، وقد نقل العراقى تصحيحه عن بعض العلماء [1] .

وهذا فضلاً عن أن كلمة مسلم فى ذكر التكاليف الشرعية تعنى كل من آمن بالإسلام من ذكر أو أنثى،صغيرأو كبير من الإنس أو الجن باعتبار «محمد»عليه الصلاة والسلام مبعوثاً إلى الثقلين .. وكان خطابه موجهاً لهما :

(١) والحديث وإن قال أحمد بضعفه فإن له بمعناه شواهد تزيل ضعفه .

﴿ يَامَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا مِنْ أقْطَارِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ (١) .

ومن هذا المنطلق الواقعى لطبيعة الإسلام ، دين الحياة والعمران ، رأينا رسول الله ﷺ يبايع النساء ، ويبيعتهن بايع الرجال ، ولا يستطيع أى امرئ له إلمام بالتاريخ أن يجهل « بيعة النساء » فى السيرة ، وبنصها بايع النبى عليه الصلاة والسلام الأنصار فى « العقبة » .

بل إن الله فى سورة الليل يقول مقسماً : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (٢) فيسوى سبحانه بين الجنسين فى القابلية للكسب من العمل : صالحاً وطالحاً ، وفيما يترتب عليهما من جزاء .

ويؤكد وحدة التكاليف فى كثير من آى القرآن ، ففى سورة آل عمران : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ (٣) . ويقول الله فى سورة المائدة : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ (٤) .

بل إن النساء يحتشدن لسماع النبى ﷺ والصلاة الجامعة معه من أجل التعليم . فإن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من الصلاة فى المسجد بلا نزاع ، ومن أجل التزاحم خصص النبى ﷺ لهن باباً يُسمى - حتى الآن فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة - « باب النساء » وما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل بالدين.

وذكر البلاذرى فى « فتوح البلدان » نساء مسلمات تعلمن القراءة والكتابة يبلغ عدد المعروف منهن نصف عدد المعروف من الرجال والكتّاب .

وروى أن الشّفاء العدوية (من قبيلة بنى عدى رهط عمر بن الخطاب) طلب

---

(١) الرحمن : ٣٣
(٢) الليل : ٣ - ٤
(٣) آل عمران : ١٩٥
(٤) المائدة : ٣٨

إليها النبى ﷺ أن تُعَلِّم زوجه أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطّاب تحسين الخط وتزيين الكتابة .

وكانت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر ، وأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنهما تقرآن وإن لم تكتسبا مهارة الكتابة .

وذكر الواقدى أن كريمة بنت المقداد كانت تكتب وتقرأ . ورُوِىَ أن عائشة بنت سعد قالت : علمنى أبى الكتاب - أى الكتابة .

وذكر البلاذرى أن أم كلثوم بنت عقبة كانت تكتب .

لقد بلغ التعليم فى المجال النسائى حداً كبيراً جعل النساء يشاركن الرجال تبعة الزحف بالإسلام نحو الخافقين . فعائشة رضي الله عنها تروى لنا أكثر من مائتين وألفى حديث ، وأختها أسماء تروى ٥٦ حديثاً .. وغيرهن كثيراً نأخذ عنهن سنة النبى عليه الصلاة السلام .

بل إن موقف عائشة رضي الله عنها فى محاولة للصلح بين علىّ وخصومه تلك التى اتهمت فيها بالانحياز ، يدل على ما كان للمرأة من وزن فى العمل السياسى ، وموقف أسماء من الحجاج حين استشهد ابنها عبد الله بن الزبير - وترفعها عن الاستشفاع له عنده ، بل تحضيضها ولدها على الثبات ، يدل على مدى الوعى الذى يمسك بزمام العاطفة .

ويروى عن أم الدرداء الفقيهة الزاهدة حضُّها على العلم وتفضيله على كل ما سواه إذ تقول : لقد طلبت العبادة فى كل شئ فما أصبت لنفسى شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم .. وقد وصفها النووى بقوله : « اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم ». وقد عاشت فى أيام معاوية . وكانت تقيم ستة أشهر فى بيت المقدس وستة أشهر فى دمشق .

قال الأستاذ صالح عبد العزيز - العميد السابق لمعهد التربية العالى للمعلمين - فى كتابه « تطور النظرية التربوية » :

« والأمثلة كثيرة على النساء العربيات المسلمات اللواتى تعلمن القراءة والكتابة والنحو ، وروين الحديث ، بل كثيرة على أنهن لم يتعلمن فقط وانما كُن يعلمن غيرهن ، وكان ممن درس عن النساء بعض مشاهير الرجال » .

وقد ورد فى كتاب « تهذيب الأسماء » للنووى أسماء أولئك النساء اللاتى تولين هذه الرسالة ، وكان يُنظر إليهن بعين التبجيل والإعجاب . وفى اهتمام مؤلفى العرب بتسجيل أسماء أولئك السيدات دليل قوى على تقديرهم لعلمهن ، وعلى إيمانهم بأن جهودهن فى نشر العلم جديرة بالتسجيل .

* * *

• تعليم البنت فى العصر الأموى :

ثم قال أستاذنا صالح عبد العزيز : كانت صبغة العصر الأموى دينية عربية عامة . فإزاء من نشأ فيه من الرجال فى العلوم الدينية واللُّغوية .. قامت طبقة من النساء الزاهدات عُرفن غالباً بالعلم مع التقوى . وقد ساعد على ظهورهن قُرب العهد بصاحب الرسالة وما فى فطرة النساء من التدين ، وأشهرهن رابعة العدوية .

« هذه الطبقة من جمهور الإماء اللاتى كان الأمويون يُعْنَونْ بتعليمهن الآداب من شعر ورواية وموسيقى .. كانت تمثل المتعلمات فى العصر الأموى ، ولقد كان من بينهن « سكينة بنت الحسين بن علىّ » التى قال عنها المستشرق الفرنسى بيرون : « إنها سيدة سيدات عصرها ، وأجملهن وأرقاهن وأسماهن صفاتاً وأخلاقاً . وكان منزلها كعبة الأدباء والعلماء » .

وتدل الدلائل على أن البنت منذ عصر الأمويين حذت حذو الولد ، فتلقت علومها بالمدارس على معلمين أجانب عنها ، فقد جاء فى الجزء الثانى من « البيان والتبيين » للجاحظ فى نوادر الوليد بن عبد الملك : أنه مر بمعلم صبيان ، فرأى جارية فسأله : ما شأنها ؟ قال : أُعَلِّمها القرآن ..

وفى أخبار الأغانى أن خليل بن عمرو المعلِّم كان يؤدب الصبيان ، ويعلِّم

الجوارى الغناء فى مكان واحد ، أى أنه فى مرحلة الطفولة كان يضاف إلى حفظ القرآن - فى الكتّاب - ما يُفيد كُلاً من الفتى والفتاة فى مستقبل حياته ، فيتعلم الصبيان الأدب شعراً ونثراً ، وتتعلم الجارية فى صغرها الأغانى التى تغنيها لطفلها أو لزوجها - أو لسيدها إن كانت الجارية من الإماء .. فقد كان انتشار الإماء فى العصر العباسى بسبب كثرة الفتوح أمراً معروفاً ... ومنهن هؤلاء الجوارى اللاتى تحدّث عنهن أستاذنا .

* * *

• فى العصر العباسى :

ثم قال أستاذنا : « بانتشار الثقافة أيام العباسيين فى كل من أسبانيا والأجزاء الشرقية من الإمبراطورية ازدادت نواحى النشاط العقلى بين النساء . ونحن نسمع عن كثير من النساء اللاتى برزن فى ميدان الدراسات الأدبية والدينية وخاصة فى رواية الحديث .

« وبين اللاتى جمع منهن البخارى أحاديثه : كريمة الحرورية والتنوخية ، ويشير السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية » . إلى كثير من النساء اللاتى كن مرجعاً له فى معرفة تقاليد النبى ﷺ وعاداته .

كما أن عدد النساء اللاتى تبحرن فى الميدان اللُغوى والأدبى ، لا يقل عن سابقاتهن ، وقد برعت كثيرات من الجوارى - أى الإماء - فى هذا الميدان وكان علم الجارية وأدبها من أهم مقوماتها ، فكان ثمنها يغلو كلما كانت آدب وأوسع علماً ، وكان من ذلك مال جَمٌ لسادتهن ، ومراكز عليا لهن فى قصور الخلفاء والحكام . ولا شك أن بعض الأمثلة القليلة لأولئك النساء المتعلمات سيلقى الضوء على ميول العصر العقلية الحرة .

- عائشة بنت أحمد :

وصفها المؤرخون بأنها على جانب عظيم من الذكاء والعلم والنقاء ، والمهارة فى النواحى الأدبية وبخاصة الشعر . وكانت فصيحة مهذبة ذات خط جميل . وصلت بفصاحتها إلى مركز عظيم هيأ لها الاتصال بملوك ذلك الوقت . وقد ماتت سنة ٤٠٠ هـ .

- فضل المدنية :

كانت حاذقة الغناء كاملة الخصال . وأصلها جارية لإحدى بنات هارون الرشيد نشأت وتعلمت فى بغداد . ولم تكن تغنى لغير سيدها . فالإسلام يرفض غناء المرأة للرجال ، وما رُوِىَ من غناء الجوارى فى استقبال النبى ﷺ يوم الهجرة « طلع البدر علينا » ضعيف الرواية ، وذلك لما يصاحب الغناء من تلاعب بالصوت مثير للرجال ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (١) . فالغناء لا يقاس بالكلام فى الإباحة .

- حسّانة التميمية :

تأدبت وتعلمت الشعر . ولما وقف الحاكم على شعرها استحسنه وأمر بإجراء مرتب لها . تقديراً لفنها الأدبى .

- عُلَيَّة بنت المهدى :

قيل عنها : إنها كانت من أحسن الناس وأظرفهم . تقول الشعر الجيد ، وتصوغ الألحان الحسنة للأغانى العفيفة . وقد حضرت على « الدمياطى » وغيره من العلماء ، وأجازها(٢) من المغرب « أبو جعفر » ، وحفظت مقدمته

---

(١) الأحزاب : ٣٢

(٢) الإجازة : الشهادة العلمية والإذن بالتدريس .

فى النحو ، وكانت تكتب وتقرأ . وقد ألف فيها والدها كتاباً سماه « النضار فى المسلاة عن نضار » وذكر الصفدى : « قال لى والدها : إنها كانت تُعرب جيداً . وأظنه قال لى إنها كانت تنظم الشعر ، وكان يقول دائماً : ليت أخاها حيّان كان مثلها » وأخوها من النابهين فى النحو .

- وَلادة الروائية :

بلغت من البراعة واللباقة حداً أتاح لها مطارحة الشعراء ، حتى الوزير الأديب الشاعر ابن زيدون طارحته الشعر . مما أدى إلى قيل وقال فى شأنهما . ويجعلنا نقول إن ما فعلته لا ينبغى للمسلمة ... وحسب المرأة أن تقول الشعر موضوعياً وهادفاً كما كانت تفعل الخنساء ، إذ تلقى على الرسول ﷺ من شعرها فى صخر مكارم الأخلاق التى تحلّى بها ، وكان النبي ﷺ يستزيدها ويقول : « إيه ياخُناس » .

- قمـــــــر :

وهى جارية لابن حجاج صاحب أشبيلية ، وقد كانت من أهل الفصاحة والبيان ، تصوغ الألحان ، كما عرفت ببراعتها فى الأدب والقصص والشعر . هذا فضلاً عن ذكائها الجم ، وذاكرتها القوية .

- عَمْـــــــرة :

قال صاحب الأغانى : « وكانت امرأة جزلة ، يجتمع الرجال عندها لإنشاد الشعر والمحادثة » . ومعنى هذا أن بيتها كان منتدى للشعر والأدب والاجتماع. لا للسهرات الهابطة الخالية من المضمون .

وظاهرة الصالونات الأدبية التى تفشت فى العصر العباسى تُقيمها السيدات اللاتى علا كعبهن فى الأدب ، يغشاها الجنسان إن كانت النسوة محجبات ،

وقليل منهن التى تكشف عن وجهها فقط ، لا شك أنها ثمرة ركود الجهاد ، وانتشار الترف الذهنى والحضارى ، وليست ثمرة غرس إسلامى نقى .

ومما يُذكر عن جوار اشتراهن هشام بن عبد الملك أنه لما استنطقهن رأى فصاحة وأدباً ، فاستقرأهن القرآن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه القصائد البليغة .

« ويروى لنا الأستاذ المستشرق برون (E . C . Browne) قصة تبين حالة النساء من حيث التعليم فى ذلك العصر . وهى أنه قدم لهارون الرشيد جارية ثمنها (١٠٠٠٠ دينار) فدفع الخليفة الثمن المطلوب . واشترط أن تؤدى امتحاناً فى بعض العلوم أمام مجلس يُعَيِّنُه الخليفة . ثم جمع الأعلام من علماء الشريعة والطب والفلك وأساتذة الفلسفة والبلاغة ومهرة اللاعبين بالشطرنج[1] وقدم تلك الجارية إليهم ليختبروها ، فامتحنت فى الفقه والتفسير والطب والفَلَك والعلوم اللُّغوية والشـــطرنج . ولم تكتف بالإجابة على الأسئلة إجابة سديدة صائبة . بل طرحت هى على ممتحنيها أسئلة عجزوا عن الإجابة عليها . ومهما كان فى هذه الرواية من المبالغة ، فلا شـــك أن الجوارى حصلن على وسائل التعلم ، ويُسِّرت لهن السُبل لدراسة الأدب العربى .

وما زلنا نجد فى أيدى القرويين القارئين قصة « تودّد » الجارية تحكى نموذجاً لما قاله المستشرق .

« بأمثال أولئك المتأدبات النوابغ من الجوارى افتخر الجنس اللطيف بالعصر العباسى ولكن افتخاره كان أتم فى طبقة أخرى من بنات البيوتات . تسربت لهن العدوى الأدبية ، فما لبثن أن صِرن عماد النهضة النسائية » .

* * *

(١) ولعب الشطرنج هل يسري عليه ما يسري على كل وسائل اللهو من الحظر ؟ قال بهذا البعض ، وقال آخرون إنه يخالفها لما فيه من تدريب على الخروج من المآذق الذهنية ، وما فيه من تفتيح للعقل فجعلوه مباحاً وأحياناً مستحباً .. إذا صحبته نية تفتيح الذهن ، والفرق بين النرد وبين الشطرنج وجود غرر في النِرد ولا يوجد غرر في الشطرنج فأنت تجهل ما سيأتي به الزهر بخلاف الشطرنج .

• النساء والتدريس والأستاذية :

ثم قال أستاذنا : « لم تقتصر النساء على الدراسة ، بل قمن إلى جانبها بالأشغال المنوعة فكن يشاركن الرجال فى مهن مختلفة . كالتدريس والطب والقضاء وشغل الوظائف العامة فى الخدمة المدنية » .

والمراد بالقضاء ما كان فيما يختص بشئون النساء ، وفى غير الجنايات عند من أجاز لهن ذلك ، وكذلك باقى المهن المذكورة إلا من تفوقن على الرجال فى بعض العلوم فكن يحاضرن للجميع فى وقار وحجاب .

« ولقد جذب ميدان التعليم معظم هؤلاء النساء . فمؤرخو الإسلام ومعاجم الطلبة تشير إلى كثير من النساء المحاضرات . وقد بلغن ثمانين امرأة .

كما ذكر ابن خِلِّكَان أيضاً أسماء عدة نساء اشتهرن طالبات للعلم ومحاضرات، ويذكر ابن أبى أوسيبيا طبيبتين هما أم وابنتها كانتا تَعْنيَان بنساء قصر الخليفة المنصور فى الأندلس .

كما اشتغلت « لانبا » و « موزنا » سكرتيرتين للخليفة الحَكَم عبد الرحمن والناصر لدين الله (فى غير تبذل عصرنا المعروف ، فضلاً عن أنهما كانتا ملك يمين).

وقد برعت « لانبا » فى الفن والإنشاد وقواعد اللُّغة والشِعر والحساب، بينما اختصت « موزنا » بالكتابة .

هذا .. وقد ورد ذكر أسماء بعض النساء العربيات اللاتى احترفن التدريس . وتتلمذ لهن الرجال كما تتلمذ بنات جنسهن . وَمنَحْنَ إجازات التدريس . والرواية لكبار الرجال . ومن هؤلاء :

١- أم المؤيد (زينب) أستاذة المؤرخ الشهير ابن خِلِّكَان . قال عنها :« إنها كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء . وأخذت عنهم رواية وإجازة ، وأجاز لها الحافظ أبو الحسن (أى أذن لها أن تروى علمه فى الحديث والأخبار) ولنا منها إجازة .

٢ - فخر النساء شهدة : واشتهرت بالخط الجيد ، وسمع عليها خلق كثير حتى اشتهر ذكرها ، وبعد صيتها .

٣ - السيدة نفيسة بنت أبى محمد : وقد كان لها بمصرمجلس علم ، وحين وفد الإمام الشافعى إلى مصر جلس إليها واستمع منها الحديث النبوى ، ويُروى أنها قالت عند وفاته : « رحمه الله .. كان يحسن الضوء ».

٤ و٥ و٦ - ومن أساتذة أبى حيّان المفسر النحوى الكبير « مؤنسة الأيوبية» أخت الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى ، و« شامية بنت الحافظ »، و«زينب بنت عبد اللّطيف » .

٧ - شهدة الكاتبة بنت الابرى : كانت جيدة الخط وأستاذة فى الحديث ، قرأ عليها عبد الرحمن بن داوود صحيح البخارى .

٨ - العَرُوضية : وهى جارية ابن المطرف فى بلنسية بأسبانيا ، وأخذت عن مولاها النحو واللُّغة وبذّته فى العَرُوض[١] حتى اشتُهِرَتْ به . وكانت تحفظ كتاب « الكامل » للمبرد ، وكتاب « النوادر » لأبى على القالى ، وهما من أهم كتب الأدب ، وتشرحهما .

قال أبو داوود سليمان : « قرأت عليها الكتابين . وأخذت عنها العَرُوض ».

٩ - مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى : سكنت فى أشبيلية . وقيل إنها كانت أديبة مشهورة . وكانت تُعَلّم النساء الأدب . وهذا يعنى وجود مجالس نسائية للدراسات الأدبية تحمل النساء فيها عبء التدريس .

---

(١) علم أوزان الشعر العربي .

هذه أمثله ، وغيرهن كثير ، فقد روى ياقوت أن شيوخ عليّ بن الحسين بن عساكر العالم المؤرخ المحدّث المشهور بلغوا (١٣٠٠ شيخ) ومن النساء بضعاً وثمانين امرأة من فُضليات العلماء .

وقد لا نخطىء إذا قلنا : إنه إذا وازنّا نساء الإسلام بنساء الإفرنج فى القرون الوسطى تبين لنا أن المسلمات كنّ أرقى من أخواتهن الإفرنجيات. ولقد تمتعت المسلمات بفرص عقلية أكثر من نساء الرومان ونساء العصور الوسطى فى أوروبا.

ولا غَرو . فقد هيأ لهن الإسلام فرصاً للتربية الراقية. من انتهزتها منهن بلغت بها أعلى المراتب التى قُدِّر للرجال بلوغها. وكثير منهن قد انتهزنها.

وما لاحظناه فى الجيل الماضى من تخلف المرأه علمياً لم يكن الأصل فيه محاربة الإسلام لتعليم المرأة ، وإنما كان مظهراً من مظاهر الجهل المُطْبَق فى عصور الدول المتتابعة . ذلك الجهل التى عَمَّتْ أثاره الرجال والنساء على السواء .

وكيف يُنسب إلى الإسلام أنه يحارب تربية البنات وتثقيفهن إلى أعلى درجة فيها صلاح لهن . وهو الذى ينقذها من الوأد صغيرة ، وهدَّد بالعذاب من يئدونها : ﴿ وإذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) . وفى الحديث الشريف الذى يرويه الشيخان والترمذى عن النبى عليه الصلاة والسلام : « من بُلِىَ من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كَنّ له ستراً من النار » .

وهل هنالك إحسان للبنات أعظم من تعليمهن تعليماً يرتقى بهن عن مستوى التصرف الحيوانى إلى مستوى السلوك العلمى الراقى ؟

إن النبى ﷺ يعلن عن مضاعفة الثواب لمن كانت عنده جارية أدَّبها فأحسن تأديبها . وعلَّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها وأحسن إليها ، وهذا فى الأمة ، فما بالنا فى الحرة تكون بنتاً أو أختاً أو ذات رحم للمسلم ؟

---

(١) التكوير : ٨ - ٩

روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كان له ثلاث بنات - أو ثلاثة أخوات - أو بنتان - أو أختان - فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة » وفى رواية أبى داوود : « فأدبهن وأحسن إليهن وزوّجهن فله الجنة » .

* * *

• ما تتعلمه الفتاة ؟

وفى الحديث أن النبى ﷺ علّم أم عطية كيف تختن الفتيات . وعلّمها كيف تُغَسِّل الميتة . وهذه من صناعة كانت تزاولها .. كما علمّها وغيرها كيف يعالجن الجروح حتى تندمل فى إحدى الغزوات ، وكانت أم سلمة وبعض الصحابيات يَضمّدن الجرحى ويسقين العِطاش .

وعن أم حرام قالت : « إن رسول الله ﷺ لأرأف بالمسلمين من عمر، وكان ﷺ يزورنى كلما ذهبت إلى قُباء . فَقَالَ[1] ذات يوم فى بيتى ثم استيقظ وهو يضحك وقال : عُرِض علىّ أناس من أمتى يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسِرّة . فقلت : يارسول الله .. ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت من الأولين »

فركبت أول أسطول عربى مقاتل فى البحر الأبيض المتوسط .. وهذا ما لم تصل إليه المرأة فى البحرية المحاربة حتى الآن لا شرقاً ولا غرباً .

واستأذنت امرأة فى أن تخرج لجذاذ النخل فأذن لها قائلا :« ولعلك أن تصدّقى » وخطب النبى ﷺ العيد فى الرجال، ثم انتقل إلى مُصَلّى النساء خلف صفوف الرجال يعظهن ويجمع الصدقة منهن فكن يرمين فى حِجر بلال الفضة

(١) قَالَ : أى نام ساعة القيلولة بعد الظهر

والحُلَى . وفى حديث البخارى عن رسول الله ﷺ :« نِعْمَ النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » وفى غزوة حنين كان من النساء من يحملن الخناجر للقتال ، وكان النبى ﷺ يُنيب عائشة فى شرح المراد من حديثه لمن لا تعى ما يقوله عليه الصلاة والسلام مما فى تصريحه به إحراج للسائلة .

واشتهرت زينب - طبيبة بنى عوّاد - بالطب فى الجاهلية والإسلام ، فكانت فضلاً عن معالجة الأبدان تُحسن طب العيون والجراحة »[1]

كل هذه الآثار تعطينا ملامح الثقافة التى يمكن أن تخوضها المرأة .. وهى : التعليم والخدمة الاجتماعية والصناعات التى تستطيعها . والفقه والدين والطب والجندية - فيما يمكن أن نسميه « سلاح الخدمات » - براً وبحراً وجواً عندما تدعو الضرورة إلى ذلك

وبعبارة أُخرى قال الفقهاء : ما تتعلمه المرأة نوعان :

١- فرض عين : وهو الذى تصح به عبادتها وعقيدتها وسلوكها .

وتُحْسِن به تدبير منزلها وتربية أولادها إن كان العرف يلزم أمثالها التدبير والتربية .

٢ - فرض كفاية : وهو ما تحتاج إليه الأمة ، ونحن الآن فى حاجة إلى طبيبات لأمراض النساء والطفولة تكفين حاجة المجتمع ، فلزم إعداد عدد كاف من الطبيبات لذلك .. وهكذا قُلْ فى تمريض النساء ، وفى تعليم الفتيات بمدارسهن ، فنحن نحتاج ممرضات ومدرسات ودروس الفتوة واجبة ، لأن أُولى الأمر قرروا الحاجة إلى التعبئة العامة على هذا المنحى ، وذلك لاحتلال أعدائنا أرضنا ..

(١) تطور النظرية التربوية لصالح عبد العزيز ص ٦٧ - المطبعة الأميرية - سنة ١٩٤٧ .

وكلما اقتضى الأمر شغل أيدى الرجال عن عمل مدنى إبان المعركة ، أو الاستعداد لها ، واحتيج إلى أن تشغل المرأة مكانهم فتعليمها وإعدادها لذلك العمل يكون واجباً .

أما إذا لم تكن ضرورات تفرض على الأمة إعداد النساء لثقافة معينة ، فالمرأة المسلمة تعرف أن ثقافتها يجب أن تتجه إلى ما يخدم وظيفتها الطبيعية ، فى رعاية البيت من : طهى وحياكة وحضانة وعلم التغذية .. ومبادئ الصحة العامة والوقائية .. ودراسة علم نفس الطفل . وقسط من الفنون يُساعد على التذوق الفنى ويُعين على تنسيق البيت ، فالوظيفة الطبيعية والأصلية للمرأة مكانها البيت ، وكنهها أعمال البيت ، ولهذا فإن اتفاق المنهج الدراسى للجنسين لا يتفق مع الفروق الفردية .

وطالما كان لدى الفتاة فراغ فشغله بالتعليم واجب .. وفى كل كلية جامعية ومعهد عال يوجد فى الأقسام ما يتفق قليلاً أو كثيراً مع وظيفة المرأة الطبيعية . فكلية الزراعة بها قسم للصناعات الغذائية ... وهكذا .

وقد درجنا على أن نرى الفلاّحة تعمل مع زوجها فى تربية الدواجن بالمنزل ، وقد تساعده فى الحقل فى زيها المحتشم ، ولم يثر واحد من العلماء على هذا . ولئن عملت المهندسة الزراعية فى مزرعتها ، أو مزرعة زوجها ، بالأسلوب العلمى فى زِى إسلامى لم يكن هنالك مانع ولا اعتراض ، اختلف أسلوب العمل فى المجال الزراعى طبقاً للاختلاف بين ثقافة الفلاّحة الزراعية .. وثقافة المهندسة الزراعية ..

فى سنترال مصر الجديدة صعدت السلم فتاة لعمل توصيلة كهربية . فماذا كان وجه الاعتراض عليها ؟ كان ثوبها القصير عندما صعدت السلم هو بيت القصيد . والعقدة والمشكلة الأولى . وكان عدم تأنيث مجال العمل بحيث لا يكون الاختلاط بين الرجل والمرأة هو المشكلة الثانية .. ولو تخلصنا من المشكلتين لما كان هناك اعتراض على نوع الثقافة ، ولا على استخدام أو عدم استخدام هذه الثقافة فى زيادة دخل الأسرة الفقيرة .

أما أن يكون عمل المرأة مزاحمة للرجل المسئول عن نفقات من يعولهم من زوجة وبنين ، وربما أبوين عجوزين فقيرين ، فهو خطيئة اجتماعية .. لأنها بعملها تُرَوّج البطالة . وتسد أبواب رزق أطفال آخرين حجبت بعملها والدهم عن كسب قوتهم . ودفعت بهم إلى التشرد والضياع ، ثم الانحراف والجريمة والعدوان على المجتمع وكراهيته .

ولا يستطيع امرؤ رشيد أن ينكر أن تربية الأم لأولادها أجدى بكثير من تربية الخدم لهن ، فالطفل فى أيامه الأولى يستقى لغته وعاداته ونموه العاطفى والاجتماعى من خلطائه القريبين . وهؤلاء الخلطاء إن غابت الأم فى عملها سحابة النهار ليسوا إلا الخدم ومن فى مستواهم من أصدقائهم ممن لا يمكن أن يورثوا الطفل إلا أسوأ العادات والمعايير ..

والتربية الناقصة للطفل تنجم عنها خسارات كبيرة يتجرعها الطفل وأبواه أولاً، ثم يجنى المجتمع ثمارها حنظلاً مريراً بعد ذلك .

ولا تنتهى الطفولة المبكرة إلاّ وتعقبها الطفولة الراشدة ، ودور المراهقة . وهما من أخطر الأدوار على تربية الطفل إذا لم يكن دائماً تحت عين الأم وبصرها ، سواء أكان الولد ذكراً أو أُنثى ، فالأم فى بيتها مربية ومعلّمة فى مدرسة ذات برنامج نوعى يتلقاه الطفل حين يعود من مدرسته مساء ، وعملية تربيته وتعليمه لا تنقطع بمجرد دق ناقوس انتهاء اليوم الدراسى .

والأم المتعلمة أقدر على متابعة العملية التربوية لأولادها فى المنزل ، وإدراك حاجات الطفل النفسية والعقلية ، كما أنها أقدر على تفهم طبيعة الحياة والمجتمع وتطلعاته ، وأقدر على أداء دورها فى ارتقائه .

بل إنها لأقدر على تفهم خصائص زوجها وسبر أغوار نفسه حتى تتكيف معه . ولا يطول أمد هذا التكيف والتوافق الذى يأخذ فى العادة ردحاً من الزمن إلى أن يكتشف كل من الزوجين رفيقه ، ويوائم بين عاداته وأهوائه وبين عادات

وأهواء قرينه ، كلما ارتفعت الثقافة - وبخاصة فى العلوم الإنسانية وعلى رأسها الدينية - كلما اختزلت خطوات « مُعادلة » التوافق والتواؤم الزوجى .

* * *

• من دفاع باحثة البادية :

وتقول مَلَكْ حفنى ناصف الملقَّبة بباحثة البادية [1] :

« وحقيقة أن النساء لم يخترعن اختراعات عظيمة ، ولكن كان منهن النابغات فى العلوم والسياسة والفنون الجميلة . وبعضهن فقن الرجال فى الفروسية والشجاعة كخَولة بنت الأزور الكندى ، فقد عجب منها عمر بن الخطاب . وأعجب باستقتالها فى فتوح الشام حينما أرادت تخليص أخيها من أسر الروم » .

ثم تقول : « إن الأم مهما تعلّمت وبأى حرفة اشتغلت فلن ينسيها ذلك أطفالها ، أو يُفقدها عاطفة الشفقة والأمومة ، بل بالعكس ، إنها كلما تنوّرت أدركت مسئوليتها ، ألم ترين الفلاحات والجاهلات يظل يبكى طفل الواحدة منهن ساعات وهى تسمعه ولا تتحرك إليه . فهل يا ترى كان شغل هؤلاء أيضاً القضايا والاشتغال بالتحرير والقراءة ؟ .

قال قائلهم : لا تعلموا البنات من الحساب إلا القواعد الأربع : لأنهن لن يحتجن لأكثر منها ، فمن أين له أننا لن يغالطنا وكيل فى قياس قطعة أرض ؟

العلم منير للعقل على أى حال . سواء عُمِلَ به أو لم يعمل (أى يُستخدم) ... لو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك . وهم واثقون أنهم لن يكونوا مهندسين ولا تجاراً ولا سائقى قطارات .

وهل تُفَضِّل السيدة التى تعرف تطبخ أن البطاطس وتنسق الأزهار فقط ، أم

(١) المنار جزء ٥ - المجلد ١٢ ص ٣٥٣ وما بعدها .

التى تعرفها أيضاً ولكنها تعلم متى تؤكل البطاطس ؟ وهل توافق زوجها المريض بالسكر أو جسمها السمين التى تريد تضميره ! وهـل وجـود أصـص (قصارى) الزرع فى حجرتها ليلاً صالح لرئتيها الضعيفتين أم مُضِرٌ بهما ؟

فهذه تعرف تدبير المنزل ، وتلك تعلمه ، ولكن زيادة معرفة واحدة بعلم النبات تحفظ لها صحتها وصحة عيالها من التلف ، فضلاً عما تشعر به من السرور الناشئ عن العلم .

إن المدارس مهما اجتهدت فى تثقيف عقول النشء وتهذيبها فإن المنزل له تأثير خاص على الأطفال .

وإذا شعر تلميذ بأن أمه عالمة ، أو لها نصيب من العلم ، فإنه يسعى جهده ليريها أنه أهل لحبها وتقديرها إياه ، فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم : لتكون الصلة بينه وبينها شديدة . فتعلُّمنا الحالى ناقص ، يجب أن يزاد عليه لا أن ينقص منه » .

* * *

• عيب التربية لا التعليم :

ثم قالت : « أما ما أشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعلم . وحقهم أن ينسبوه للتربية .

ودليل على ذلك أن كثيرين من المبرزين والمبرزات فى العلوم لا خلاق لهم . وأن الكتاب الواحد قد يُدَرِّسه معلمان مختلفان فى فرقتين . كل على حدة ، فتتعلم الفرقتان الكتاب ، ولكن نجد أثر الهمة وعلو النفس فى واحدة ، ولا نراه فى الثانية .

فهذا ناشئ من تأثير روح المعلِّم فى تلاميذه . لا من العلم . وإلا فلو كان من العلم لتساوت الفرقتان . لأن الكتاب واحد ، والعلم لا يختلف .

التربية الحسنة : هى التى تعوِّد الإنسان من صغره احترام الغير إذا استحق الاحترام ولو كان عدواً .

فالتعلم لم يفسد أخلاق الفتيات . وإنما هى التربية الناقصة ، تلك التربية - فى الحقيقة - يجب أن تكون من أعمال البيت لا المدرسة .

ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التى تؤهلها لإحسان تربية الأطفال . فقد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لإصلاح شأن أنفسنا أولا ، ثم إصلاح النشء؟ . ولا يتم ذلك فى لحظة كما يُتوهم . ومن الظلم أن نُلقى مسئولية الفساد كلها على المدرسة فإن المدارس لها تأثير فى التربية ولكن ليس عليها كل الذنب . بل العيب فى الأسر » ؟

* * *

• مقترحات باحثة البادية :

وفى ختام حديثها قالت : « ولو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الأتية :

المادة الأولى : تعليم البنات الدين الصحيح . أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة .

المادة الثانية : تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى ، وجعل التعليم الأولى إجبارياً فى كل الطبقات .

المادة الثالثة : تعليمهن التدبير المنزلى علماً وعملاً ، وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الأولية .

المادة الرابعة : تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله ، وفن التعليم ، حتى يقمن بكفالة النساء فى مصر .

المادة الخامسة : إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد .

المادة السادسة : تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد فى العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

المادة السابعة : اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة . فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

المادة الثامنة : اتباع عادة نساء الأتراك فى الآستانة فى الحجاب والخروج (١٣٢٧هـ / ١٩٠٧م) (غطاء الرأس بالخمار الذى يُغطّى الشعر والعينين والأذنين ، ورداء أشبه بالبالطو بأزرار أو بلا أزرار ، كملابس الجزائريات والمغاربة ينسدل على الجسم إلى الكعب ويكون طويل الكمين) .

المادة التاسعة : المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الأشياء بقدر الإمكان .

المادة العاشرة : على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا » [1] .

* * *

(١) المسلمة العصرية عند باحثة البادية .